مرة أخرى... مع البنية الاجتماعية والهدي النبوي في ظل الكتاب

«٢»

هذه الجسور المباركة الممتدة بين معالم الهداية في كتاب اللّه تعالى وبين بيانها من هدي النبي عليه الصلاة والسلام توحي بوحدة المنهج الرباني في القرآن والسنة ما دام رسول اللّه ﷺ قد قلّد أمانة البيان لذلكم الكتاب المعجز الذي لو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً.

حملني على التذكير بهذه الحقيقة ـ وقد أشرت إليها غير مرة فيما مضى ـ ما يجده القارىء لبعض الآيات الكريمات التي تعرض لشيء من أخلاق النبي ﷺ أو توجهه إلى الاستمرار على مسلكه فيها وفي غيرها، وارتياد ساحات أوسع وأشمل من ساحتها التي هي عليها. ثم ما يجده في هدي النبي ﷺ من توجيه خلقي ينمي الأواصر الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد من المؤمنين ضمن ذلك الإطار المشار إليه.

ها نحن أولاء، نقرأ في سورة الحجر ـ وهي سورة مكية ـ بدءاً من الآية الخامسة والثمانين قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾﴾.

وترى العلاقة واضحة هنا بين طبيعة الرسالة وبين تلكم الأخلاق التي وُجه رسول اللّه ﷺ إليها. كما أن حصول ذلك في عهد مبكر من عمر الدعوة في العهد المكي: يدل على أن الأخلاق القويمة هي من الأسلحة الماضية على طريق الدعوة إلى اللّه.

ونقرأ في سورة آل عمران آيات تنزلت بشأن من كان منهم الإصرار في أول الأمر

على الخروج لملاقاة قريش خارج المدينة بين يدي معركة أحد، وكان ذلك منهم ـ رضي الله عنهم ـ رغبة في نيل الشهادة في سبيل الله؛ لأن جلّهم لم يكن له شرف المشاركة في معركة الفرقان (بدر).

نقرأ في هذه السورة بدءاً من الآية التاسعة والخمسين بعد المائة قول الله تعالى خطاباً للنبي ﷺ ـ وهو يزاول عملية البناء الكبرى في حالات السلم والحرب ـ: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾**﴾ نقرأ هذا في العهد المدني، ورأينا في سورة الحجر بعض ما تنزل في العهد المكي.. حتى إذا انتقلنا إلى البيان العملي في هدي الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو يعمل على صياغة المجتمع المسلم وتنمية الأواصر بين الأخوة المؤمنين الذين يتحركون على ساحته في كل ميدان وعلى كل صعيد: نجد من ذلك الهدي قوله صلوات الله وسلامه عليه: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة**» متفق عليه. وفي حديث رواه البخاري ومسلم أيضاً: «**والكلمة الطيبة صدقة**» ويروي مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**» وصلى الله وسلم وبارك على معلم الناس الخير، المبلغ عن الله ما أراد.

* * *

البناء الاجتماعي...
عوامل التماسك في القرآن والسنة
(لا تحقرنَّ...)
«٣»

في الطريق إلى تقديم المزيد من صور الهدي النبوي ـ بياناً للقرآن ـ على صعيد البناء، وصياغة الإنسان المسلم والمجتمع المسلم وفق ما تمليه عقيدة التوحيد، والمنهجُ الذي تنظم به شؤون الحياة والسلوك.. في الطريق إلى ذلك: كانت لنا وقفة عند بعض النماذج من حديث رسول اللّه ﷺ التي كان منها ما روى مسلم من قوله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**».

وأنت واجد أن في الحديث حضاً على فعل المعروف مهما كان شأنه، ولو أن يلقى المؤمن أخاه المؤمن بوجه طليق؛ فما بالك بما هو أكثر من ذلك، وكم لهذا التوجه من أثر في تمتين الروابط وشد أواصر الإخوة بين المؤمنين مما يعود على المجتمع بالتماسك والقوة. وهذا من رسول اللّه ﷺ توظيف للأخلاق ـ وهي مرتبطة بالعقيدة في شرعة الإسلام ـ على ساحة البناء الاجتماعي وتقديم الضمانات التي تنمي فاعلية الجماعة وقدرتها على العطاء، وتقي المجتمع غائلة التخلخل وقعود أبنائه عن التعاون وعقد الخناصر على إنشاء القوة الذاتية التي لن تكون الأمة صاحبة الكلمة بدونها.

والحق أن رسول اللّه ﷺ كان دائماً على المحجَّة البيضاء بياناً لمعالم الكتاب العزيز.. أجل كان دائماً على المحجَّة البيضاء وهو يعمل بهذا البيان على إنقاذ الإنسان من الضياع والتمزق، ووضع حدٍّ لمرحلة الشقاء التي باعدت بينه وبين ربه

وجعلته يعيش في جفوة مع فطرته التي فطره اللّه عليها. وكان هذا الإنقاذ عن طريق بناء هذا الإنسان على مفهومات الرسالة الخاتمة، وإعداده إعداداً صحيحاً يمكنه من بناء المجتمع المبرّأ من عوامل الهدم والتفكك، ويشعره بحقيقة وجوده الإنساني من جديد.

والقارىء لما قاله عليه الصلاة والسلام لأبي ذر في الحديث المشار إليه: «**لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق**» لا بد أن يذكر أن عدداً من آي الكتاب الكريم التي عرضت لخلق النبي ﷺ كان صنيعه في التوجيه إلى المنهج الأخلاقي ـ كما هو في الإسلام ـ نوعاً من البيان العملي لتلكم الآيات ضمن الإطار العام للمنهج الرباني في كتاب اللّه وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام.

وقد رأينا من ذلك من قريب آيات من سورتين كريمتين إحداهما مكية وهي سورة الحجر والأخرى مدنية وهي سورة آل عمران. في الأولى قول اللّه جلت حكمته: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾**﴾ وجاء في الثانية قوله سبحانه خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾**﴾.

وإلى لقاء قريب نسعد من خلاله إن شاء اللّه بمزيد من عطاء المعلم القرآني في هذه الآيات خصوصاً، والآيات المكية ذات دلالة مبكرة على الحجم الذي يأخذه المنهج الإعلامي في ساحات البناء وتنمية القدرات الفاعلة عند إنسان العقيدة... واللّه ولي التوفيق سبحانه.

* * *

الجهاد... والبناء
أخلاق النبوة في استجابة للمنهج

«١»

كما أشرنا في صفحات قريبة إلى أن العفو والصفح الجميل وما إلى ذلك من الأخلاق التي كانت سمة التصرف مع الكفار في العهد المكي، جاء الإذن بالقتال في سورة الحج فأشعر المسلمين بجديد في أمرها، أشعرهم بأن الضمانة الأكيدة لانتشار دعوة الإسلام والحيلولة دون المشركين وحلفائهم من اليهود والمنافقين ودون ظلم المسلمين بل والقضاء عليهم وعلى رسالتهم في البناء.. إنما تكون بالجهاد في سبيل اللّه، أما معاملة أهل الشرك وأعداء الإسلام عموماً بتلكم الأخلاق فقط، فتلك مرحلة انتهت وحلَّت مكانها مرحلة الجهاد، خصوصاً وأن المسلمين بعد الهجرة وما أثمرت من التآخي بين المهاجرين والأنصار أصبحوا مهيئين من حيث العدد والعدة ـ بشكل عام ـ لملاقاة الأعداء في مواجهة قتالية تحكمها راية «**لا إله إلا اللّه محمد رسول الله**» ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

والذي أود التنبيه عليه اليوم أن ذلك كله لا يعني الحطَّ من مكانة المنهج الأخلاقي أو إزاحته من الطريق، ولكنه تسيير للأمور في مسارها الطبيعي وفق سنن اللّه؛ وذلك عين الحكمة والصواب! وسبحان الحكيم الخبير:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلى مُضِرٌّ كوضع السيف في موضع الندى

على أن المسلك الأخلاقي في العهد المكي قد آتى ثماره ـ كما أشرت غير مرة ـ خصوصاً عند أولئك العقلاء الذين رأوا ما عليه رسول اللّه ﷺ والمسلمون في ممارسة شؤون الحياة فتحرروا من الهوى والتقليد الأعمى، فإذا هم منصاعون للحق يدخلون في دين اللّه وتنشرح صدورهم للإسلام.

وهكذا كان من إحكام البناء في تربية المسلم وتنمية قدراته ومؤهلاته لمواجهة الحياة بما تحمل المواجهة من أعباء، ولعمارة الأرض بما يقتضي ذلك من الأخذ بالأسباب في يقظة للتحديات.. كان من إحكام البناء في تربيته وإعداده ـ وهذا ما يجب أن يكون دائماً ـ أن الأخلاق لا تعني الضعف والغفلة، ولا تعني بحال من الأحوال وضعها بديلاً عن اليقظة لكل شاردة وواردة، وعما يجب من بذل الأموال والأنفس في سبيل اللّه، وإعداد القوة المستطاعة من أجل ذلك.

ولشد ما يستثير النظر، وصف اللّه نبيه ﷺ بعظمة الخلق في وقت مبكر من رحلة البناء التي كان يقوم بأعبائها في العهد المكي؛ وذلك بصيغة مؤكدة لا تدع زيادة لمستزيد، صيغة هي في الوقت نفسه شهادة من اللّه تبارك وتعالى لهذا النبي الكريم بتلك المكرمة، ودليل يؤكد حكمته سبحانه في اختياره محمداً عليه الصلاة والسلام للرسالة الخاتمة، وأنه جل وعلا أعلم حيث يجعل رسالته. ذلكم ما جاء في فواتح سورة القلم ـ وهي سورة مكية ـ من قوله جل وعلا: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾[القلم:١-٧].

وإلى لقاء قريب نستهدي من خلاله بعطاء المعلم القرآني في هذه الآيات لنرى كيف أن المنهج الأخلاقي في حياته ﷺ ـ وهو الأسوة الحسنة ـ قيمة عظيمة تأخذ حجمها الطبيعي على ساحة البناء وتنمية قدرة الأمة على دروب البناء ورد العاديات. وصلى اللّه وسلم وبارك على من كان خُلُقه القرآن.

* * *

إحكام البناء.. والقدوة

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

«٢»

ليس بالأمر العادي ولا القضية العابرة أن يوصف الرسول ﷺ ـ وهو يصارع الشرك وأهله ـ ويواجه ـ وهو يرتاد دروب البناء للإنسان في كل زمان- تحديات كثيراً ما تنأى بأصحابها عن مكارم الأخلاق، وتعمل جاهدة على أن تفتري عليه بما ليس فيه بل بما هو على نقيضه.. ـ ليس بالأمر العادي والأوضاع على هذه الشاكلة: أن يوصف بأنه على خلق عظيم؛ وذلك فيما حملت الآيات التي أشرنا إليها من قريب وهي فواتح سورة القلم من قول الله تبارك وتعالى: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ هكذا تأتي هذه الشهادة الإلهية للنبي الكريم مؤكدة بإنَّ واللام، ووصف الخُلُق بالعظمة﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولقد يسعفنا بإدراك هذه الحقيقة: أن نكون على تصور سليم لطبيعة المهمة التي كان يضطلع بها رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولما كانت عليه الأمور في الجزيرة العربية وما حولها، ثم في غيرها من بقاع العالم، وكيف أن رحلة البناء التي بدأت بتنزل الوحي، كان منوطاً بها أن تتولى إزالة الشوائب من الطريق، وأن تقصي رواسب الجاهلية عن ساحة التأثير في حياة الفرد والمجتمع، ثم تبني الإنسان بوصفه فرداً في المجتمع ـ ومن وراء ذلك الأمة ـ على المنهج الرباني الذين حملته الرسالة الخاتمة رسالة الإسلام التي طلعت على الدنيا بنظام كامل للحياة، وعمل رسول الله على تربية جيل يبني الوجود العملي لذلك النظام.

والملاحظ ـ كما يرى في نسق الآيات الكريمات ـ أنَّ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ قد تقدمه نفي لتهمة نسبها الكفار لرسول اللّه عليه الصلاة والسلام، وكان ذلك لوناً من ألوان الإيذاء وهو يخوض معركة التغيير. فاللّه تعالى أقسم بالقلم وما يسطرون على أنه عليه الصلاة والسلام في منأى ـ والحمد للّه ـ عما يلصقونه به وينسبونه إليه من صفة الجنون: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ أي لست ـ والحمد للّه ـ بمجنون كما يقول الجهلة والسفهاء من قومك المكذبون بما جئتهم به من الهدى والحق المبين الواضح لكل من يستخدم عقله كما ينبغي فينسبونك فيه إلى الجنون.

ولا يقف الأمر عند هذا الحد ـ فنرى لوناً من ألوان الإكرام الإلهي للرسول عليه الصلاة والسلام على صبره وثباته وعظيم احتماله؛ وذلك فيما ينطق به قوله تعالى:﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾ فلست كما يقول أولئك الجهلة السفهاء، بل إن لك الأجر العظيم والثواب الجزيل الذي لا ينقطع ولا يبيد على إبلاغك رسالة ربك إلى الخلق وصبرك على أذاهم. ومن الواضح أن ما قاله أولئك التعساء كان لوناً من ألوان المواجهة للرسول عليه الصلاة والسلام وهو يجاهد ويجالد ليبني الإنسان بعد أن ينقذه من وهدة الوثنية والخرافة والظلم ويرتفع به إلى المستوى الذي يجعل منه لبنة صالحة في مجتمع متكامل متماسك تحكمه شريعة اللّه. ويجيء قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ متوجاً لهذه المقولة التي تنفي السوء، وتثبت الأجر الذي لا ينقطع، وتجعل القاعدة الأساسية لتحرك رسول اللّه عظمة خُلُقِه عليه الصلاة والسلام.

وهكذا: تقترن القدرة على تحمل أعباء البناء وارتياد دروبه الشائكة بهذه الشهادة الربانية: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ولقد عملت أخلاق رسول اللّه عملها في تكوين جيل التغيير ،كما عملت عملها في الانتصار على الآخرين... والحمدللّه.

* * *

القدرة الفاعلة
وأخلاق النبوة... في البناء
«٣»

عندما يكون الحديث حديثاً عن البناء والطاقة الفاعلة عند الفرد والجماعة، ويدار في ظل التكامل في حلقات التاريخ، يكون الكلام حول أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام: كلاماً عن تلك القيمة الهائلة التي شهدها التاريخ على طريق الرحلة المثقلة بالإنجاز - الذي يكاد يستعصي على الإحاطة - تلك الرحلة التي قاد خطاها بنفسه صلوات اللّه وسلامه عليه ، وكان الصحابة الكرام رضي اللّه عنهم نعم الجند الأمناء المخلصون فيها، وكان ذلك كله عاملاً مهماً من عوامل حشد ما أمكن من الطاقات والفاعليات لهذه الرحلة..

وهذا ما أشعر الإنسان في الجزيرة العربية بوجوده الذاتي، وأقدره ـ بعون اللّه ـ على بناء المجتمع القدوة الذي أرسيت قواعده في المدينة مهاجَر الرسول صلوات اللّه وسلامه عليه، المجتمع الذي لا يعوزه واحد من عناصر التمكين والعطاء، ضمن ما يكون من ظروف وملابسات، ليس أقلَّها ما كان ينبغي من تجاوز المكروه من أعمال الجاهلية وأخلاقها، وإقرار ما كان على السنن الأخلاقي المستقيم؛ كالذي شهد التاريخ من تقدير الرسول ﷺ لخلق الكرم والنجدة عند حاتم الطائي، حين أمر بعد سبايا طيىء بإطلاق سراح بنته سفانة أخت عدي؛ وبالغ في إكرامها حيث كساها وحملها على راحلة وأعطاها نفقة لها في طريقها إلى أخيها عدي بالشام. رواه أحمد والترمذي وابن إسحاق وأصحاب السير...

وفيما رأينا من فواتح سورة «القلم» وهي: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يستوقفنا هذا الاقتران بين الشهادة للنبي ﷺ بتلك المكرمة التي لا تكاد تجارى، وهي أنه على خلق عظيم، شهادة مؤكدة بـ «إنَّ» و«لام التوكيد» بخطاب له من اللّه وبين القسم من اللّه تعالى بالقلم وما يسطرون، على نفي قالة السوء من سفهاء القوم وجهلتهم، يوم أزمعوا أن يحاربوه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ ويعملوا بكل وسيلة على الحيلولة دون الدعوة الجديدة التي جاء بها وحياً من عند مولاه عز وجل، ودون أن تأخذ طريقها إلى قلوب الناس وعقولهم!

وذلك لأن استمرار زعامتهم على الوجه الذين يريدون مرهون ببقاء أولئك الناس غارقين في كهوف الوثنية الخرقاء، مستسلمين للخرافة والتقليد الأعمى للآباء والأجداد، ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون.

وإذن: فليكن المنهج الخلقي الذي كان عند من بعث ليتم محاسن الأخلاق ﷺ الذي كان سمة التصرف في سلوكه مع الآخرين، من أمضى الأسلحة في مواجهة أولئك الذين أطبقت الجاهلية بظلامها الدامس على عقولهم وقلوبهم، فعموا وصمُّوا، وضاقوا ذرعاً بدعوة الحق التي تقوم على توحيد الخالق جل وعلا، وإفراده بالعبودية والطاعة، يصحب ذلك تحرير العقل من إسار الخضوع لكل ما هو مناف للعقل السليم والفكر المستقيم!!

وإذا كنا على ذكر أخلاقه عليه الصلاة والسلام، في الصبر على تكاليف الدعوة ومشاقها، واحتمال الأذى في سبيل إيصالها إلى الآخرين، والقدرة على اشتمال الأحداث والوقائع المرهقة مهما جلَّت واتسع مداها، مستعيناً با للّه عز وجل ثم بمن حوله من المؤمنين الصادقين الصابرين...

إذا كنا على ذكر من ذلك أمكننا أن نخطو الخطوة الأولى بثبات ووعي، في تقدير الحجم الكبير الذي يأخذه على ساحة الصراع في معركة البناء على أنقاض ما سبق، ضمن تلك الظروف الحرجة والملابسات، وصف خلقه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ بأنه عظيم، وبهذه الصيغة من التوكيد في خطاب له عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

وهذه الصيغة ما أحيلاها وأعذبها وأقواها في التكريم من الرحمن الرحيم لنبيه وحبيبه المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم!

فهو ـ جل شأنه ـ لم يقل في هذا الخطاب: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ وإنك لعلى خلق ـ وكفى ـ بل جاء التوكيد باللام بعد إنَّ، ووصف هذا الخلق ـ وهو من عطائه ـ بأنه عظيم. ومن هنا كان هذا الوصف منه سبحانه وتعالى أمر عظيم جليل.

هكذا تعمل الأخلاق التي تتجه وجهتها الإيجابية عملها في تحقيق الغايات الكبار.

وعطاء المعلم القرآني في هذه السورة المكية: سورة «**القلم**» دليل واضح على قيمة السلاح الذي كان سداه ولحمته عظمة الخلق بشهادة الخالق المعطي رب العظمة والعظماء سبحانه، عند الرسول عليه الصلاة والسلام، ودليل في غاية الوضوح أيضاً على ما للبناء الأخلاقي ـ كما نراه في معالم الكتاب العزيز وهدي النبوة قولاً وفعلاً وإقراراً ـ من أثر بالغ في بناء الجيل المزمع إعداده للتغيير إلى ما هو الأفضل والأقوم قيلاً.

وفي ذلك ما فيه من تنميته الفاعلية المهديَّة عند الفرد والجماعة، وحماية المجتمع من مآسي الانحراف وفوضى المقاييس الوافدة، والمصطلحات الطارئة من هنا وهناك.

ألا وإن الغد الذي ترتقبه الأمة منوط ـ بقدراللّه ـ بالجيل الذي تحكم سلوكه تلكم الأخلاق: من صدق في العمل طاعة للّه ، وصبر على تحمل التبعات، وثبات على متابعة الطريق، ثباتاً تتزحزح الجبال وصاحبه لا يتزحزح، لأنه - بصدقه واستعانته باللّه ومراقبته له في كل حركة وسكنة يأوي - بحمد اللّه - إلى ركن شديد.

* * *

القدرة الفاعلة وأخلاق النبوة في البناء

«٤»

ما شهدناه من عطاء المعلم القرآني فيما افتُتحَت به سورة القلم من قول اللّه جلت حكمته: ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

ما شهدناه من هذا العطاء والحديثُ يدور حول قوله تعالى خطاباً للنبي ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ يؤيده فيما أعطت الآيات الكريمات لعظمة خلقه عليه الصلاة والسلام من قيمةٍ على ساحة الصراع في ميادين البناء ما تلا ذلك من بعدُ حيث نقرأ قول اللّه سبحانه: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾.

فأنت واجد هنا أن الأمر لا يقف عند هذا الإكبار لشخصيته عليه الصلاة والسلام، ولكن الآيات الهاديات تُشعرنا بارتباط هذا الأمر بالقضية الكبرى التي من أجلها أوذي رسول اللّه ﷺ وعودي من قِبل أولئك السفهاء.

ففي مناخ معقد من الأوضاع الجاهلية في الجزيرة العربية وغيرها، قام رسول اللّه ﷺ ـ وهو يبلغ عن ربه ما أراد ـ بارتياد الطريق الأمثل لبناء الإنسان بناء استفاض نوره منذ العهد المكي وبناء المجتمع، وفق ما تمليه الرسالة الخاتمة، وإعادة الطاقات البشرية والمادية المهدرة إلى مسارها الطبيعي، كيما تكون وسيلة إنتاج لخير الإنسان بدل أن تكون طاقة معطّلة أو وسيلة لامتهان الإنسان وظلمه وإهدار كرامته.

وما دامت تلك هي الوجهة في تبيُّن المحور الذي يقوم عليه الصراع، ويكون على الساحة ما يكون من التحدي، فليُنْظر إلى ما يترتب على تبرئة رسول اللّه ﷺ من دعاوى المشركين الضالَّة.

ها نحن أولاء نقرأ قوله سبحانه وما يزال الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ۝٦﴾.

أي فستعلم يا محمد وسيعلم مخالفوك ومكذبوك مَن المفتون الضال، منك ومنهم!! من الذي يجني على نفسه وعلى المجتمع؟!

كما في قوله تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ۝٢٦﴾ [القمر:٢٦] وقوله تباركت أسماؤه: ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ:٢٤].

ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

تلكم هي مقولة الهدى والضلال تشير إليها الآية الكريمة في أعقاب ما مرَّ من الآيات: فهو سبحانه أعلم بمن ضلَّ عن سبيله فجحد الخالق وكان عنصر هدم لمجتمعه وأمته، كما أنه جلَّ شأنه أعلم بالمهتدين الذين يؤمنون بما جاء به محمد ﷺ ذو الخلق العظيم، وهو يقضي على تُرهات الجاهلية، ويعمل على إزاحة ركامها من طريق الإنسان.

ألا إن عملية البناء الكبرى التي توفَّر رسول اللّه ﷺ على قيادتها وعَمِلَ على بناء جيل التغيير من أجلها، وتنميته كل ما من شأنه تحقيقها كيما تكون معطياتها وجوداً حياً ناطقاً في كل ميدان. إن هذه العملية صحبها من أول يوم تلكم الأخلاق الفاعلة المحركة التي هي للبناء أبداً والنماء أبداً.

إنها أخلاق سيد الهداة وإمام البناة، وإذا كان هو الأسوة الحسنة صلوات اللّه وسلامه عليه، فلتأخذ تلكم المقولة حجمها الطبيعي في مسيرة التغيير الذي ينشده المصلحون.

* * *

البيان النبوي... والأخلاق البانية في مواجهة الهدم والهدامين

«٥»

ما وقفنَا عليه المعلم القرآني في فواتح سورة القلم التي كان منها قول اللّه تبارك وتعالى خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ يقودنا إلى شيء من المتابعة لبعض آي السورة لنرى كيف وُضعَ الخُلق العظيم الذي وصف به النبي عليه الصلاة والسلام موضع المواجهة لأعداء اللّه في تكذيبهم وانحرافهم الخلقي، وكان من أمضى الأسلحة في نصرة الحق الذي يدعو إليه، الأمر الذي يؤكد ما أشرنا إليه فيما سبق من أن أخلاق رسولنا الكريم كانت قيمة هائلة في رحلة البناء التي قادها بنفسه عليه الصلاة والسلام ، وشرع يُعدُّ لها الإنسان المسلم من أول يوم في العهد المكي بعد أن تنزل عليه الوحي من السماء.

وها هي ذي الآيات التي نلمح إليها في السورة نفسها سورة القلم؛ فبعد قول اللّه جل شأنه:﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ نقرأ قوله سبحانه: ﴿فَلا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾[القلم:٨-١٦].

وإذن ففي حومة الصراع بين الحق ـ تقدمه إلى الدنيا كلمة التوحيد ـ وبين الباطل يتدحرج عنواناً للجحود والانحراف.. في حومة هذا الصراع حيث أهل الحق يرتادون للإنسانية ميادين الخير من أجل البناء والإصلاح في مواجهة لسدنة الهدم الضالين المضلين؛ تعلن أخلاق النبوة إعلانها، فترى الكلمات النورانية في كتاب اللّه تنطق بقوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ وكأن اللّه يريد أن يقذف بها على باطل ما عند الآخرين من انحراف خلقي من وراء جحودهم وكفرانهم باللّه، فيقول سبحانه مخاطباً نبيه عليه الصلاة والسلام:﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ أي كما أنعمنا عليك وأوحينا إليك بالرسالة، وأعطيناك الشرع المستقيم والخُلق العظيم فلا تطع المكذبين برسالتك الجاحدين لدعوتك.

لا تطعهم فتنزلَ ولو على شيء من هواهم ـ فيما يريدون أن يساوموا ويداهنوا ـ ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ ودّوا لو تركن إلى آلهتهم وتترك ما أنت عليه من الحق، فهم لا يقتصرون على تكذيبك فيما جاءك من الوحي، ولكنهم يتجاوزون ذلك إلى الرغبة في أن تترك هذا الذي أوحي إليك من الحق.

ذلكم هو تحرير القاعدة التي يقوم عليها بناء الإنسان صاحب الرسالة من الشوائب، حتى يكون ما هو عليه من الحق قضيةً مسلّمة يستحيل أن يقبل فيها مساومة أو إخضاعاً لنظرية الاحتمالات..

ومن وراء ذلك حتى يكون هو في نفسه أقوى من كل ما يعترض طريقه من رغَب أو رهَب؛ فلا الدنيا بحطامها وزخرفها ومغرياتها، ولا الطغيان العاتي والقهر الظالم، بمزحزحه عن متابعة طريقه ابتغاء مرضاة اللّه عز وجل، بل إن الشدة لا تزيده إلا ثباتاً ورسوخاً؛ وذلكم من أمضى الأسلحة في مواجهة الطواغيت أعداء اللّه والإنسان.

هكذا تجد: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ هنا وتجد في المقابل: ﴿ وفَلاتُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾ ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ الخلق العظيم من رسول اللّه يواجه الامتحان الصعب على طريق التغيير.. فلا بدع أن يكون الصبر والثبات ـ بعون اللّه

ـ منه عليه الصلاة والسلام، الصبر والثبات على ألوان من الفتنة والأذى لو انصبَّت على الجبال الرواسي لتصدَّعت من الهول، وكانت منه الكلمة التي تعتبر حجر الزاوية على طريق الدعاة إلى اللّه الذين يحملون رسالة الخير وأمانة البناء لحضارة مثلى هي حضارة الإسلام.. كانت منه الكلمة التي أملاها على التاريخ مخاطباً به عمه أبا طالب: «**واللّه يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك دونه**».

* * *

أخلاق النبوة... في مواجهة الهدم والهدامين

«٦»

كان لنا مع فواتح سورة القلم التي كان منها قول اللّه تبارك وتعالى يخاطب نبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ شرف رحلة عجلى مع المعلم القرآني وقَفْنا من خلالها على لون من ألوان التحدي الصادر عن المشركين صاحبَ اتهامهم النبيَّ عليه الصلاة والسلام بما هو منه براء، لا لشيء إلا لأنه دعاهم إلى التوحيد ونبذِ ما كانوا عليه من الوثنية والإشراك باللّه عز وجل والاستمساك بتقاليد الجاهلية الجهلاء.

وكان عنوان هذا اللون من التحدّي: ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾.

وواضح أن السلاح الفعّال في مواجهة هذا التحدي: كان تلك القيمة الهائلة التي ينطوي عليها قول اللّه جل شأنه ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

فقد واجه عليه الصلاة والسلام ما يوده المشركون من التحول عن دعوته والركون إلى وثيتهم وخرافاتهم، واجه ذلك كله بيقين لا يتزعزع بما هو عليه، وثباتٍ على طريق التبليغ منقطع النظير، وصبر يقتحم بإذن اللّه كل ما يكون من أذىً ومعوقات. علماً بأن هذه المواجهة كانت بالقدوة قبل أن تكون بتوجيه من معه من تلك الفئة المؤمنة الصابرة إليها.

ويقودنا المعلم القرآني إلى حقيقة كان لا بد من أن تكون واضحة لدى المسلمين يومذاك، وهم القلة التي تصارع بإيمانها وصبرها قوة البغي وجبروته، تلك الحقيقة هي أن الأخلاق ليست هنا في مسلك أولئك السفهاء الذين تواجههم القلة المؤمنة فهي ـ على الأعم الأغلب ـ مغيبة أو مفقودة في هذا الصراع.

فكما أنهم لا يستندون إلى حجة يقبلها العقل السليم، تراهم والجفوة قائمة بينهم وبين أبسط القواعد الأخلاقية إلا القليل النادر منهم في التعامل مع الآخرين.

فبعد قول اللّه جلّت حكمته وعزّ سلطانه: ﴿فَلاَ تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾. نقرأ بدءاً من الآية العاشرة قول اللّه تباركت أسماؤه: ﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

أين هذا كلُّه ـ وهو طابع السلوك عند واحد من زعماء التحدي ـ من ذلك السمو الذي يشرق به قو ل اللّه تعالى شاداً أزر النبي عليه الصلاة والسلام ـ وهو يخطو بعملية البناء الكبرى خطواتها الأولى ـ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ إنه الخلق الذي يعمل عمل السلاح الفعّال في المعركة ـ على المدى البعيد ـ فلا خوف من هؤلاء الذين يجاهرونك بالعداوة ؛لأنك تدعوهم إلى كلمة الحق ويريدون منك أن تنزل على هواهم.

أنت تواجههم بالخلق العظيم أمانة وصدقاً ورغبة في إيصال الخير لهم، وهم يواجهونك بهذه الأخلاق الذميمة كالذي ترى في أخلاق هذا الذي سنسمه على الخرطوم.

إن رحلة البناء التي يقودها الرسول عليه الصلاة والسلام: لا مكان فيها لمن يحكم تصرفاتهم هذا اللون من الأخلاق﴿وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾﴾ ذلك بأن الكاذب لضعفه ومهانته إنما يتقي المؤاخذة ويحاول أن يدفع عن نفسه بأيمانه الكاذبة التي يجترئ بها على أسماء اللّه تعالى واستعمالها في كل وقت؛ فهو يعالج الانحراف بانحراف أشدَّ منه.

قال عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنهما: المهين: الكاذب. وعن مجاهد: المهين: هو الضعيف القلب. وقال الحسن: كل حَلاَّف مكابر: مهين ضعيف. وهذا الحلاَّف المهين الذي نُهيَ رسول اللّه عن طاعته والركون إليه ديدنه أيضاً الاغتياب والمشيُ بالنميمة ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾

إنه الانهدام في شخصية الفرد والداء الوبيل الذي يُعرّض الجماعة للتفكك والانحلال.

ولقد واجه رسول اللّه الهدم والهدامين في العهد المكي بذلكم النهج المستقيم الأقوى والأسمى الذي دلَّ عليه قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وهكذا نرى الآيات تقرر هذه الحقيقة وتكشف من بعدُ عن صنيعها في مواجهة التحدي.

* * *

أخلاق النبوة... في مواجهة الهدم والهدامين

«٧»

للّه ما كان أعظمها أمانة تلك التي كان على رسل اللّه عليهم الصلاة والسلام أن يؤدوها على الوجه المطلوب، وهم يمهِّدون ـ كلٌّ لمن أرسل إليهم ـ طرائق الخير، ويأخذون بأيديهم إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا طمأنينة ورضىً على طريق الحركة والبناء الحضاري، ونجاتهم يوم الدين: ﴿ **يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً**﴾.

وعلى هدي هذه الحقيقة، للّه ما كان أعظمها مسؤوليةً في بناء الإنسان والحياة وتنمية كل ما من شأنه سمو الإنسان وازدهار الحياة! تلك التي أؤتمن عليها رسول اللّه وقد أوحي إليه بالرسالة الخاتمة التي تحمل الهيمنة على ما قبلها، وتتَّسع ـ كما شاء اللّه ـ لنبي البشر في كل زمان ومكان. بدءاً من البعثة المحمدية وحتى يرث اللّه الأرض ومن عليها.

من هنا: كان التواؤم واضحاً بين ما اؤتمن عليه صاحب الأمة نبينا الكريم في بناء الإنسان والحياة، وبين عطاء اللّه الذي أُسبغ عليه كيما يقوم بتلك المهمة العظمى خير قيام.

قادني إلى ذلك ما رأينا في كلام سبق من الاتِّساق بين كونه ﷺ ـ بشهادة مولاه ـ على خلق عظيم ـ كما جاء في فواتح سورة القلم من قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾**﴾ ـ وبين ما كان مطلوباً منه أن يواجهه من تحديات المشركين ـ طاعة للّه تعالى ـ على ما كان للتحدي من صور وألوان.

وقد رأينا في تلك العُجالة من القول: كيف أن الآيات الكريمات تخاطب الرسول ﷺ بأن لا يطيع ـ نظراً لما لهذه الطاعة من أبعاد ـ كل حلاَّف مهين هماز مشاء بنميم. هذا المخلوق الذي يرفع عقيرته في مواجهة ما أراد رسول اللّه ﷺ من تغيير الحال التي كان عليها الفرد والمجتمع، ويكذب ويحلف الأيمان الكاذبة ليسوِّغ انحرافه، فيقع في ذل المهانة.

ومن وراء ذلك تراه لا يفتأ يغتاب الناس ويمشي بينهم بالنميمة.

هذا المخلوق الذي ديدنُه الهدم وعرقلة مسيرة الإصلاح، والحيلولةُ دون الكلمة الهادية ودون أن تصل إلى العقول والقلوب.. غير أهل لأن يسمع له أو يطاع ويلتفت إليه، بل الواجب عدم طاعته: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾.

وبمزيد من البيان لحال هذا الإنسان وأمثاله قال تعالى: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾﴾.

فهو فظٌّ غليظ القلب سيىء العشرة، مشهور بالسوء واللؤم، أو أنه دعيٌّ في قومه. وهو إلى جانب ذلك كله مناع للخير معتد أثيم.

وانظر إلى ما تحظى به عملية البناء التي وُكل إلى خاتم النبيين محمد بن عبداللّه ﷺ أن يرفع لواءها، ويصارع من يقف في طريقها.. انظر إلى ما تحظى به من عناية تشمل مع وضع الأخلاق البانية في مواجهة الهدامين الضالين. وَضْع الفكر الصائب موضعه في معركة البناء، وتعرية الفكر الجاهلي الضال وإظهاره على حقيقته.

ذلكم قوله تعالى: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾.

إذا تليت عليه آيات اللّه التي قام الدليل اليقيني القاطع على أحقيتها وكونها على وجه اليقين من كلام اللّه.. زعم أنها أساطير الأولين، لا لشيء، إلا لأنه كَفَر وجنح إلى عدم شكر المنعم سبحانه.

إن الحكم الذي يطلقه هذا الإنسان: صورة من صور الجاهلية التي لا تقيم وزناً للدليل ولا تُخضع الدعوى لحجةٍ أو سلطان.

وطريق البنـاء الصـالح غيـر هـذه الطريق، إنهـا طريـق تكرِّم العقلَ، وتُقـيم على كل دعوى دليلها، وتكرم الإنسـان فتنـأى عن أن يكون ضحيـة الهوى والعبث الأرعن الذي لا ينتج إلا هدم الإنسان في كرامته ووجوده.

* * *

البناء.. وأخلاق النبوة

عائشة رضي الله عنها... والوعي

«١»

هذه كلمات يراد لها أن تكون حديثاً ذا نسب إلى ما جرت الإشارة إليه من قبل من أن صورة من صور الوعي عند المرأة المسلمة التي أُعِدَّت قلباً وعقلاً وسلوكاً وفق المنهج الرباني في بناء الإنسان المسلم ـ ذكراً كان أو أنثى ـ: تبدو في كثير من الوقائع والصور، ومن عيون ذلك ما نقع عليه في مصادرنا الأصلية من تفسير عائشة رضي الله عنها لقول الله جل ثناؤه في فواتح سورة القلم خطاباً للنبي عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

ولئن كان الاهتمام بما بينت أم المؤمنين رضي الله عنها يدعو إليه توكيد ما دعا إليه الإسلام من وجوب البناء السليم للمسلم بناءً متكاملاً متوازناً، سواء في ذلك الذكر والأنثى؛ لأن خطاب التكليف موجه إلى المكلفين جميعهم ذكورهم وإناثهم دون تفريق، وإن اختلفت بعض الأحكام اختلافاً مردُّه حكمة الله في التكوين والاستعداد...

لئن كان الاهتمام بما بينته رضي الله عنها توكيداً لوجوب البناء السليم لكل من المسلم والمسلمة: إن وصف النبي ﷺ من قبل الخالق جل شأنه بأنه على خلق عظيم، - والصراع محتدم بين صف الحق وصف الباطل - أعطى لهذا الخلق العظيم ـ كما سلفت الإشارة من قبل ـ قيمة عظيمة جدٌّ عظيمة في ميدان المواجهة مع أهل الجاهلية الوثنيين، ومعاناة البناء المستأنف للإنسان بعد إزالة الركام الذي هو من مهمات تلك المواجهة يومذاك. والذي من فصائله: أمراض الوثنية والانحراف الخلقي في كثير من الوجوه، ناهيك عن الخضوع للخرافة التي استحوذت على قلوب الكثيرين وعقولهم، وطاعة الهوى والشيطان، والتقليد الأعمى للآباء والأجداد.

ولتكن هذه الكلمات مرقاتنا إلى ما ألمحنا إليه من تفسير عائشة رضي اللّه عنها للخلق في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾.

جاء في مصنف ابن أبي شيبة: عن معمر عن قتادة. سُئلت عائشة رضي اللّه عنها عن خلق رسول اللّه ﷺ فقالت: «كان خلقه القرآن» تقول رضي اللّه عنها: كما هو في القرآن. وروى الإمام أحمد عن الحسن قال: «سئلت عائشة رضي اللّه عنها عن خلق رسول اللّه ﷺ، فقالت: كان خلقه القرآن».

هكذا كان فهم أم المؤمنين رضي اللّه عنها، الفهم الذي ينبىء عن فقه دقيق للنصوص، ووعي للحقيقة كما هي؛ إذ إنه ﷺ ترجمان لهدي القرآن في كل أحواله مبلغاً ومعلماً ومربياً ومزكياً وقدوة عملية نعمّا هي في حسنها ونورها!

ومهما يكن من أمر فإن عائشة عليها الرضوان تفسر هذا التفسير، والآية المعنيَّة آية مكية وهي لم تتزوج بعدُ رسول اللّه ﷺ؛ إذ كان الزواج بعد الهجرة وهي لا تزال في سن مبكرة.

لقد رأت عائشة بفهمها لأحوال الرسول ﷺ هذا التطابق بين تلك الأحوال، وهدي الكتاب العزيز الذي اؤتمن هو على بيانه بعد تبليغه.

وإنه لفهم يدل على المستوى الذي وصلت إليه المرأة المسلمة في عصر النبوة، وبلغ من هذه الدقة أن تقول: «كان خلقه القرآن».

لقد رأت رضي اللّه عنها أنه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ بامتثاله للخطاب القرآني أمراً ونهياً، وترغيباً وترهيباً وتوجيهاً، صار سلوكه على هذه الصورة المشرقة سجيَّة؛ إذ ترك كل مراد من مراداته للقرآن؛ فمهما أمره القرآن بأمر فعله، ومهما نهاه عن أمر تركه، والأصل عنده اتباع ما أوحي إليه ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴿٥٠﴾﴾[الأنعام:٥٠] ممسكاً في ذلك كله ـ وهو يبلغ وينذر ويبشر ويبني الفرد والجماعة ـ بعاتق الميزان، فلا يزيح عن الهدي الرباني ـ وحاشاه من ذلك ـ قيد أنملة، ولا يريم.

هذا مع ما جبله اللّه عليه من الخلق العظيم حياءً، وتواضعاً، وشجاعة، وكرماً، وصلحاً، وغير ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسنها، حتى قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت لأتمم محاسن الأخلاق».

ولا تسل عن الآثار الفعَّالة على طريق بناء المجتمع المسلم القدوة، التي كان يتركها في نفوس جند الإيمان والحق، وهم يرون في أخلاقه وسلوكه ـ صلوات اللّه وسلامه عليه ـ الصورة العملية لما يدعوهم إليه وهو يمسك بزمام القيادة والريادة.

وما يؤكد هذا الذي نقول عن فقه عائشة رضي اللّه عنها: ما روى مسلم عن سعد بن هشام قال: «سألت عائشة رضي اللّه عنها فقلت: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول اللّه ﷺ! فقالت: أتقرأ القرآن؟ فقلت: نعم، فقالت: كان خلقه القرآن» ورواه عبدالرزاق أيضاً في مصنفه.

وبعد: فهذه إشارة عابرة ـ لا يحتمل المقام أكثر منها ـ إلى نموذج من نماذج الوعي الأمين عند المرأة المسلمة ـ وهي تسهم في بناء الحياة الإسلامية ـ خصوصاً من كانت في موقع التعليم والتوجيه.

إن إحكام البناء في شخصية عائشة ـ بجانب ما رزقت من مواهب - جعلها تربط بين الواقع التطبيقي في أخلاقه عليه الصلاة والسلام، وبين الآية الكريمة، لتخرج بتلك الحقيقة المستنيرة التي قوامها أن العمل بالقرآن سجية؛ كان خلقه عليه الصلاة والسلام.

فإذا أردت الهداية: فانظر إلى خلقه؛ فهو الخلق الذي يتحرك بالرسالة ليعطيها وجودها الحق، ويكون نعم الأسوة الحسنة والقرآن الناطق حركةً في دنيا الواقع لأصحابه ومن بعدهم الأمة، بل ولكل منصف من بني الإنسان.

* * *

فهم عائشة.. وأخلاق النبوة في البنـــاء

«٢»

مع الرحلة المباركة التي أسعدَنا فيها عطاءُ المعلم القرآني في آيات من فواتح سورة القلم وقول اللّه تعالى خطاباً للنبي ﷺ :﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ قادنا الحديث إلى واحدة من صور الوعي الذي بلغته المرأة المسلمة القانتة في ضوء المنهج الرباني في بناء الإنسان المسلم ذكراً كان أو أنثى.. وذلك فيما ثبت عن عائشة أم المؤمنين رضي اللّه عنها من تفسير للخلق العظيم من قوله تعالى:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ حيث قالت رضي اللّه عنها وقد سئلت عن خلق رسول اللّه ﷺ : «كان خلقه القرآن» وذلك في رواية أغفل فيها اسم السائل. وحين سألها سعد بن هشام أيضاً فقال: أخبريني يا أم المؤمنين عن خلق رسول اللّه ﷺ قالت: أتقرأ القرآن؟ فقال سعد: نعم. فقالت: «كان خلقه القرآن». وكانت بهذا معلمة حكيمة لسعد ومن ورائه الأمة، ومدربة حكيمة على سلامة الربط بين السلوك والحقيقة في كلام اللّه، لقد أرادت رضي اللّه عنها ــ وهي تجيب عن هذا الأمر الجلَل ــ أن تفهم سعداً أن الأمر لا يحتاج إلى كبير عناء؛ فالذي يقرأ القرآن ويدرك أبعاد أوامره ونواهيه وتوجيهاته، وينظر في سيرة الرسول الكريم وهو يزاول شؤون الحياة تبليغاً للرسالة وتربية للناس عليها، وتطبيقاً لهذه الرسالة في نفسه وفي أهله وفي المجتمع..

الذي يقرأ القرآن وينظر فيما كان عليه رسول اللّه ﷺ، يُفترض أن يدرك بكل يسر وسهولة: أن خلق رسول اللّه ﷺ هو القرآن.

فنهجه الخلقي ـ جزاه اللّه عن الأمة خير الجزاء ـ صورة عملية تطبيقية لهداية الكتاب الكريم؛ ولذلك قالت: أتقرأ القرآن؟ فقال: نعم، وعندها قالت: «كان خلقه القرآن».

هذه الواقعة من عائشة رضي اللّه عنها، دليل واضح ـ كما أشرنا من قبل ـ على مدى الوعي الذي بلغته المرأة المسلمة ـ وخصوصاً من كانت في موضع الريادة والتوجيه والتعليم ـ وهذا الوعي ثمرة من ثمرات البناء الذي أُحكمت لبناته على أساس من عقيدة التوحيد؛ الشجرة المباركة الوارفة الظلال التي يمتد رواؤها المبارك إلى كل جانب من جوانب المجتمع. وأن الرجل والمرأة في شرعة الإسلام مخاطبان بما جاءت به الرسالة الخاتمة.

ومن مظاهر الكمال في هذه الرسالة الربانية: ما كان من تكريم المرأة وتشريفها بالمسؤولية في خطاب التكليف بعد الذي كانت عليه في الجاهلية من وضع لا يليق بلغ مبلغ أن يزعم المشركون على محور من الهزء بالأنثى أن الملائكة بنات اللّه، وقد افترقت عن الرجل بأحكام محدّدة مردها إلى طبيعة التكوين، كما اقتضتها حكمة البارىء المصور سبحانه، وكما جرت الإشارة إلى ذلك غير مرة.

ولكم يُحسن من بيدهم مقاليد الإعداد والبناء ـ حين تتوافر لهم حرية التصرف الإيماني المدروس ـ أن يتقوا اللّه في أن يزيدوا بمعرفة ومنهجية من تنمية الوعي الحقيقي عند الفتاة المسلمة؛ كيما يعود إليها اعتزازها بالانتماء إلى تلكم المنابع الخيرة التي هي من سمات خير أمة أخرجت للناس، والتي قامت عليها حضارة الإسلام التي أثبتت وجودها الخيِّر على الدوام، وأعطت للدنيا أفضل النماذج من مثل عائشة وخديجة وسمية وأضرابهن.

إن رحلة التغيير التي ينشد سلامتها المصلحون والتي يريدونها ذات نسب أصيل إلى الإسلام.. إن هذه الرحلة بأمس الحاجة إلى أن تأخذ المرأة المسلمة الواعية مكانها الطبيعي فيها لتعطي عطاءها المنشود في إعداد الجيل والإسهام بدفع

القافلة إلى الأمام، الأمر الذي يؤكد التزام ما جاء به المنهج الرباني من تبصير المرأة بالرسالة، وإعدادها إعداداً يتناسب مع خطاب التكليف الذي وُجه إليها كما وجه إلى الرجل..

كما يتواءم مع ما تصبو إليه الأمة من تحوُّل جذري في عالمي التصور والتطبيق.. فتسلَمَ لهذه الأمة مواردها البشرية كما ينبغي، ويكون في مقدورها أن تنمِّي مواردها المادية الأخرى، وتضع ذلك كلَّه في مواجهة الواقع الذي تعمل على تجاوزه، بل وصياغة واقع جديد غيره على هدي الرسالة التي يتحرك الجيل تحت رايتها واضعاً نصب عينيه أداء الأمانة بصدق وإخلاص في كل ميدان من ميادين العمل البناء والإنماء المطلوب.

* * *